

21 ديسمبر 2008

المفكر البناء وقيمه

د. أحمد حلمي

وكيل وزارة التعمير سابقاً مهندس ومؤرخ

في حال الدنيا ونظامها

تنهض الأمم والأوطان على أيدي أبنائها الأكفاء الأذكياء المخلصين الأوفياء، ويمثلون طائفة "البنائين الأخيار". كما تهدم الأمم وتخرب الأوطان، عندما ينتشر الفساد بفعل المقيمين بالمكان، وحاملي جنسيته بالمولد، لا بالإنتماء. ومن ثم فكل منهم ينظر إلى داخل نفسه.. فهو منظومة مغلقة (Closed System)، ولا ينتج عنه إلا الأنانية، وعدم التعاون مع الآخر أو قبوله، فينتشر الأخذ بدلاً من العطاء، فيتفسخ الفكر، وتزول الحكمة، وتنعكس خصائص "الإجتماع الإنساني" من الإيجابية إلى السلبية. وينتج عن هذا تداعى العلم والعلماء الخالص، والعمل الجاد القائم على العطاء، فتختفى الخبرات ويحتل أنصاف الرجال المناصب والقيادة، ثم يحل محلهم الأصفار، ثم تصبح البيئة ممهدة لصعود "الهدامين الأشرار"، وبناء عليه ينقلب "منحنى الزمان"، ويختفى "الزمن الجميل" ويظهر "الزمن الرديء".

ويترتب على هذا إنتشار الجهل وتغييب العقل، ويتبدل سلوك الإنسان في الأغلبية الساحقة، وتبسط حركة المجتمع الإنساني في مسيرتها حتى تصل لمرحلة الكسل الدائم. ومن ثم تتقلص "ظاهرة العمل" ويتوقف الإنتاج، ويختفى "المجتمع المتوازن" سواء كان قائماً على "التعاون البناء" أو على "التنافس البناء". وهذا هو "حال مصر الآن" فهي محاصرة في "ذاتها" وفي أبعادها الأربعة، في الوطن العربي والأمة الإسلامية ووادى النيل، وفي قيمتها - عبر الزمان- "كنصير دائم" لحركات التحرر والأمم والمجتمعات المستضعفة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم أجمع وهو ما نطلق عليه "البعد العالمي" أو "البعد الرابع".

شموخ القامة والقيمة في شخص رءوف عباس

وهنا تظهر قيمة رءوف عباس، ومدى الفجيعة بفقده في مصر والوطن العربي والأمة الإسلامية، ولا يقتصر هذا على الكيانات التي إنتمى إليها بإخلاص وجدية ونقاء بل تمتد الفجيعة إلى المجتمع الإنساني كافة باعتباره "منظومة" تسير بخطى واسعة نحو "التكامل البناء" لا "التفاضل الهدام". فهناك كيانات ودول ومجتمعات وأقليات ومنظمات في "النظام السياسي العالمي الحالي". النظام العالمي الجديد؟! تسير على هدى الهدامين الأشرار. وخططهم "الهدم وقلب وتشويه منحنى الزمان" ليتحول من الصعود إلى الهبوط، تمهيداً لعملية "الإحلال" بالغزو المادى والمعنوى والفكرى. ومن ثم فرءوف عباس حامد كمناضل ومفكر وبناء خبير، هو إضافة لحركة التحرر في مصر بأبعادها الأربعة، ولذلك فوجوده إضافة كبيرة، ورحيله خسارة لا تعوض.

فلقد كان رءوف عباس مقاتلاً جسوراً، وفارساً نبيلاً، لا تلين عريكته في إطار العدالة بشتى صورها وأنظمتها. وهو في دفاعه عن "الحق" ينظر إلى الهدف فقط وبدون أى مؤثرات ذاتية، فهو منزه عن الهوى، ولا يبعده عن موقعه الدفاعى لومة لائم أو مصلحة شخصية، ولولا هذه الخصيصة الأصيلة في نفسه لكان منتشراً في كثير من مراكز القيادة والمناصب العليا، التي قفز إليها الكثيرون الذين أثاروا السلامة بالوقوف موقف المتفرج السلبي الذي يرجح مصلحته الشخصية على الدفاع عن "الحق الذى هو في حقيقته الوجه الآخر لعملية الإنتظام فى نظام الكون".

وهنا تظهر قيمة وطول قامته وقدر وشموخ العالم الجليل ومربى الأجيال والإنسان رءوف عباس، فهو فاعل أصيل فى "إنتظام المجتمع" وتجاذبه مع نظام الكون وأسسها، التى يمثل الحق والعدل معياراً أصيلاً فى ارتقاء و "وجود" الأمم والمجتمعات والمنظمات، وضياعه يؤذن بإنهيار الأمم، واستمراره يبنىء بالمسيرة إلى النهاية المحتومة، وهى "العدم" والخروج من المكان والزمان ومن ثم نهاية الكون.

ولما كانت الأمم ترتقى على أيدي أبنائها الأكفاء الأذكياء، فلقد كان الدكتور/ رءوف عباس يتميز بذكاء نادر، من أهم خصائصه سرعة البديهة، والقدرة العالية على الربط بين الجزئيات، ومن ثم فقد كانت قدرته على الإستيعاب عالية وفائقة السرعة، ثابتة فى صعودها واستمراريتها مهما طال زمن التلقى، فهو لا تصيبه غفوة فى ذهنه. فى ترددية المخ البشرى

في التلقى أحياناً، بل كان عقله يعمل دائماً بإنتباه شديد وتركيز متميز. وترتبت على هذا قدرته المبهرة على إستخلاص لب الموضوع والأسباب والنتائج، ووضعها في قالب معرفي متميز ومتماسك يرتقى بالكتابة والنتاج العلمي من مرتبة المعرفة (Knowledge) إلى مرتبة الفكر (Intelligence)، ومن كثرة ما كتب رعوف عباس بهذا المستوى الرفيع، فقد تميزت كتاباته بنوع من الحكمة (Wisdom) التي ارتقت بإنتجاهه العلمي والفكري إلى هذه المرتبة السامية، وعليه فقد فقدنا رجلاً حكيماً في عصر إختفت فيه الحكمة، وظهر نقيضها من أسفل سلم الإرتقاء.

ولما كان سلم المعرفة يتكون من خمسة مراتب، أولها البيان (Data)، ثم المعلومة (Information) وتتوسطه المعرفة، ويتسدها الفكر، وتتربع الحكمة على القمة لذلك نجد الدكتور رعوف يقف شامخاً على القمة. وعلى النقيض في هذا الزمان الأغبر والردىء، هنالك الكثيرون ممن يتولون كثيراً من المناصب ينحدرون إلى أسفل من مرتبة المعرفة إلى مرتبة المعلومة، بل الطامة الكبرى في أن أغلبهم يصل إلى مرتبة البيان، ويلاحظ أن الدول الفاشلة ونظمها تكثر كثيراً من البيانات الرقمية الخداعة التي إذا ربطناها ببيانات أخرى نتجت عنها معلومة مختلفة تماماً، وإذا ربطنا هذه المعلومة بمعلومات أخرى تكون بناء معرفياً مختلفاً، قد يؤدي إلى فكر مختلف. وهذه هي مصيبة مصر الكبرى حالياً. ومن هنا تظهر الحاجة إلى الكثرة من طراز رعوف عباس وما يمثله في الأوجه المتنوعة للنشاط الإنساني بشقيه المعنوي والمادى، ليس هذا مطلوب في مصر فحسب، بل هو مطلوب وبشدة في جميع أبعادها الأربعة. وهو ما يترتب عليه الإرتقاء وتوقف الهدم وزوال الغمة من قلب الأمة.

وتجدر الإشارة أن الذكاء المبهر والألمعية الواضحة، لا تصح إلا بوجود عنصر العطاء. فنحن نعمل بجد وإخلاص لأنه كتب علينا ذلك وهذا من صفات البنائين الأخيار. فلا بد من وجود الخبرة، والخبرة تنشأ من العمل بجد وإخلاص بهدف الإتيان والجودة التي هي من خصائص مسيرة التطور في نظام الكون، كذلك لا يتم هذا الأمر إلا بالتعاون الذي يقوم على العطاء من أجل بناء المجتمع العادل الخير المتطور الصاعد الواعد، لذلك فإن توليفة الذكاء والعطاء، والبعد عن الأهداف المادية والأنانية، والإتجاه إلى خدمة الكل لا الجزء، من أجل العمل على إرتقاء الجماعة كهدف أسمى، تؤدي بالقطع إلى إعمار الكون عامة والعمران البشرى خاصة، وهذا هو ما كان يتحلى به أستاذنا الدكتور رعوف عباس فهو من التوليفات المتميزة والنادرة التي تجمع بين "شدة الذكاء وتواصل العطاء وتمازجهما". ولهذا الأمر كان بناء خيراً ومبدعاً متميزاً وعطاء كريماً بدون حدود.

كل هذه الصفات والأمور كانت سبباً في محبة الناس وكل أخيار المجتمع له حتى الأشرار الهدامين كانوا يخشونه ويهابونه. وعندما تسأل أى شخص عنه سواء تعرف عليه أو رآه من قريب أو من بعيد تكون الإجابة الوحيدة والمتكررة التي أصبحت من كثرة مما سمعتها من الجميع - علامة وصفة ثابتة- هي "رجل محترم". وقد رسخ هذه الصورة أنه كان متزناً لا تظهر عليه شدة الإنفعال، ويستطيع التحكم بغضبه أو إستيائه فيحوه إلى طاقة لتحفيز فروسية المدافع عن الحق، ومن ثم كان دائماً يحتفظ بهدوئه وهو يسمع، فيزداد تركيزه، وكذلك وهو يتكلم فيحسن إختيار الكلمات والردود. ومما زاد من تثبيت هذه الصورة وزيادة الإحترام أنه كان ذا أدب جم، عفيف اللسان، ولما كان هذا يمتزج بروح فكهة بدون إسفاف، ودعابة رقيقة، وضحكة صافية، لذلك كانت صورة الإحترام تمتزج بالمحبة والصفاء والود الذي يجعلك تحس بالعذوبة والنقاء. ولقد كان أسكنه الله فسيح جناته يتميز بالصدق والصراحة فكنت تحس في لقاءك معه بالأمان، وتتكلم على سجيبتك، فتتحول الجلسة إلى غذاء للنفس، فتقتسم معه همومك العامة والخاصة، وتتبادل معه الأفكار والحلول، فيزول عنك الضيق والغم، وتخرج من لقاءه قادر على الإستمرار والمواجهة والمجابهة.

رحم الله الأستاذ الفاضل والعالم الجليل الرجل المحترم والعطاء والجواد الدكتور رعوف عباس حامد، ونسأل الله أن يعوض مصر بأبعادها الأربعة عن فقدانه، وأن يطرح البركة في الأجيال الجديدة بأن يخرج منها الكثيرون الذين نرجو أن تسمح لهم الظروف بأن يحاكوه ويتخذوه قدوة ومثالاً يحتذى.

وأرجو في هذا المقام من كل من يعمل في حقل الإعلام أو في وسائل الإتصال أن تكون وفاة هذا المحترم الخلاصة (Abstract) والعطاء ناقوساً نبرز فيه خصائص وتكوين مثل هؤلاء الرجال المحترمين وحياتهم المبهرة، ليكونوا مثلاً وقدوة يحتذى بها النشء، بدلاً من أن تكون الساحة فارغة قصراً على النماذج الهدامة من أساطين الفساد والإفساد. حتى ينشأ التوازن في العرض، وفي تشكيل العقل المصرى وإمتداداته وأبعاده.